المبحث الثاني

أخطاء يتوهم أن الأنبياء وقعوا فيها

إن حياة الإنسان العادي كثيرًا ما تتعرض لمواقف مختلفة وعليه أن يحدد رد فعله تجاهها، هذا عن الإنسان الطبيعي فما بالنا بالأنبياء الذين جاءوا ليصححوا حياة البشرية وفقا لمنهج إلهي ارتضاه لعباده، وطلب من الأنبياء شرح هذا المنهج وبيانه وتطبيقه.

أثناء هذا الشرح وذلك التطبيق نرى أنه من الطبيعي أن يصطدم الأنبياء مع السلطة الزمنية وغيرها من الجماعات التي تظن أن منهج السماء سيضر بمصالحها على الأرض. وأمام هذا الصدام ستتعدد مواقف الأنبياء وردود أفعالهم، وطبيعي أن تختلف التفسيرات حول مواقف الأنبياء.

وسنحاول فيما يلي أن نتعرض لمواقف بعض الأنبياء التي كانت موضع خلاف في تفسيرها بين العلماء.

آدم عليه السلام:

من المعروف أن الله تعالى طلب من آدم وحواء ألا يأكلا من شجرة معينة من شجر الجنة، ولكن الشيطان وسوس إليهما أن الله لم يمنعهما من الأكل من الشجرة إلا لسببين: هما أنهما سيصبحان ملكين، وسيخلَّدان في الجنة ﴿**ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾[1].

وبعد أن أكل آدم وحواء من الشجرة اكتشفا أنهما قد جانبهما الصواب حين

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠ .

اتبعها الشيطان، وتمثل العقاب الإلهي في عدة أشياء:

١- نزول آدم وحواء من الجنة إلى الأرض؛ حيث الصراع بين البشر **﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾**[١].

٢- أصبح آدم وحواء من الظالمين؛ لأن الله كان قد حذرهما **﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾**[٢].

٣- أصبح آدم من العصاة الغاوين الذين أزلهم الشيطان لقوله تعالى: **﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾**[٣].

٤- عوقب آدم وحواء بنزع لباسهما **﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾**[٤].

ويمكن الرد بشكل إجمالي على هذه السلبيات التي وردت في قصة آدم بأنها كانت قبل بعثته، كما لم تكن لآدم في الجنة أمة[٥]، والدليل أن هذه الذلة كانت قبل النبوة قوله تعالى: **﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾**[٦].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٦ .

(٢) سورة البقرة، آية: ٣٥ .

(٣) سورة طه، آية: ١٢١ .

(٤) سورة الأعراف، آية: ٢٢ .

(٥) شرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني (ت ٧١٢هـ) - تحقيق د. عبد الرحمن عميرة - عالم الكتب - بيروت - ط١ - ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م - ج٥ - ص٥٣ .

(٦) سورة طه، آية: ٢٢ .

obeikandl.com

- ما حدث من آدم كان على سبيل النسيان والسهو[١] لما كان قد حذره الله منه، وعاهده عليه من أن الشيطان عدو له ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما**﴾[٢].

- ليس معنى توبة آدم أنه أذنب، ولكن التوبة قد تقع ممن لم يذنب مطلقًا، بل إنها تحسن ممن لم يقع منه خطأ على سبيل الانقطاع إلى الله، والرجوع إليه طلبًا لثوابه تعالى[٣].

- حاول ابن حزم بمنهج التحليل اللغوي بيان مفهوم ألفاظ العصيان والظلم، التي لحقت بآدم بعد مخالفته أمر الله بالأكل من الشجرة؛ حيث إن كل مخالفة لأمر الله تعتبر معصية، ولكن هذه المعصية إما أن تكون عن عمد؛ لأن فاعلها كان قاصدًا للمعصية، أو تكون مخالفة الأمر عن تأويل مقصود به طاعة الله وتحقيق الخير، وهذا يسمى أيضًا معصية رغم أن هذا المتأول لا يدري أنه عاص؛ لأنه ظن أن الأمر الذي طلب منه تنفيذه ليس على سبيل الإيجاب، وإنما على سبيل الندب، أو على سبيل الكراهية في حالة النهي. والعصيان المنسوب لآدم عليه السلام من هذا النوع. ولكن النهي عن الأكل من الشجرة كان على

---

(١) الفرق بين النسيان والسهو يتمثل في أن الأول هو زوال الصورة عن القوة المدركة والحافظة بينما الثاني هو زوال الصورة عن القوة المدركة بعد بقائها في الحافظة، والبعض لا يرى فرقا بين السهو والنسيان. انظر شرح المقاصد - ج٢ - ص٣١٥.

(٢) سورة طه، آية: ١١٥.

(٣) عصمة الأنبياء: الفخر الرازي - ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية (المجموعة السادسة) - العدد ٤٧ - ١٩٦٤م - ص١٨.

سبيل الوجوب[١]، وهو ما غفل عنه آدم.

وهذا النوع من الغفلة هو الذي يقع من الأنبياء أيضًا؛ حيث إن ابن حزم ينزه الأنبياء عن تعمد المعصية[٢]، وموقف الأنبياء في هذه الحالة يشبه العلماء والفقهاء المجتهدين حين يجانبهم الصواب، ومع ذلك فهم يؤجرون؛ لأن غفلتهم عن إصابة حكم الله لم يكن عن تعمد، وإنما عن غفلة معرفته.

ثم ينتقل ابن حزم لمناقشة الظلم الذي كان قد حذر الله تعالى منه آدم وحواء من الوقوع فيه إذا اقتربا من الشجرة، فالظلم في اللغة يعني وضع الشيء في غير موضعه، فإذا وضع الأمر موضع الندب، ووضع النهي في موضع الكراهية فهذا يسمى ظلما؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، ومثل هذا الظلم هو ظلم بغير قصد، وليس فيه معصية؛ لأن الظلم الذي يقصد به صاحبه المعصية هو الذي يسمى معصية[٣].

والسؤال الذي يفرض نفسه:

لماذا اعتبر ابن حزم أن آدم لم يكن ظالما ولا عاصيا عن قصد حين أكل من الشجرة؟

والحق أن آدم كان في نظر ابن حزم بريئا من القصد إلى المعصية؛ لأن إبليس خدعة حين أقسم لآدم أن نهى الله عز وجل عن الأكل من الشجرة ليس تحريما،

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام: ج٨ - ص٥٧٤.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم - تحقيق د. محمد إبراهيم نصر- د. عبد الرحمن محمد عميرة - دار الجيل - بيروت - ج٤ - دون تاريخ - ص١٠.

(٣) الفصل - ج٤ - ص١٠.

وليس هناك عقوبة على آدم أو حواء إذا أكلا من الشجرة بل بالعكس سوف يستحقان الجزاء الموفور والفوز بالخلود؛ لأن الله تعالى نقل عن إبليس قوله لآدم وحواء **﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما من الناصحين﴾**[(١)]. أما لماذا صدَّق آدم إبليس اللعين رغم أن الله كان قد حذره منه فذلك لأن آدم نسي عهد الله إليه أن إبليس عدو له **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾**[(٢)].

وإذا قبلنا من ابن حزم أن آدم وحواء نسيا تحذير الله لهما من عداوة الشيطان، فكيف نقبل أنهما أطاعا الشيطان حين أخبرهما أن نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة؛ لأنهما سيصبحان ملكين ويفوزان بالخلد فهل ظنا أن الله ينهاهما عما فيه خير لهما؟! والأغرب من ذلك أن ابن حزم كان قد رأى أنهما ظنا أن مخالفتهما لله سترضي الله عنهما فهل خان آدم وحواء ذكاؤهما لدرجة أنهما اعتبرا أن نهي الله لهما كان عن شيء يحقق خيرًا لهما؟ ثم ظنهما أن مخالفتهما لأمر الله فيه رضوان الله.

وفيما أرى أن من أفضل التفاسير أن آدم ظن أن ما نُهي عنه كان شجرة معينة بصفتها الشخصية وليس الجنسية **﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾**[(٣)] فأكل من جنس هذا الشجر دون هذه الشجرة بذاتها أو بشخصها في حين أن المنهى كان جنس هذا الشجر كله بما فيه الشجرة التي أكل منها آدم، وذلك ليتضح مدى ضعف القدرات

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠، ٢١ .

(٢) سورة طه، آية: ١١٥ .

(٣) سورة البقرة، آية: ٣٥.

البشرية وعظمة المغفرة الإلهية[١].

والجدير بالذكر أن الصوفية حاولوا الدفاع عن آدم بمنهج صوفي متميز يتمثل في أن معصيته كانت معصية صورية، فاعتبروا أن آدم بتوبته إلى الله هو أول فاتح لباب التوبة حتى يعرف بنيه كيف يتصرفون إذا وقعوا في المنهي عنه؛ ولذلك لو لم تقع تلك المعصية على يد آدم لوقعت على يد غيره[٢]، كما لم يكن هبوط آدم وحواء إلى الأرض عقوبة لهما، وإنما ليتحقق الوعد الإلهي السابق بأن يكون آدم في الأرض خليفة، من بعد ما تاب الله عليه بالاعتراف واجتباه[٣].

وبلغة صوفية أراد الله تعالى أن يعرف المؤمنين مقام الاعتراف، وما ينتجه من السعادة، فكان ما وقع من آدم هو على سبيل التعليم لبنيه[٤]، فأكل آدم من الشجرة لسر بينه وبين ربه[٥]، مما دفع الشيخ أبو مدين التلمساني لأن يقول: «لو كنت مكان آدم لأكلت الشجرة كلها»[٦].

---

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر: الشرح للإمام على القاري (ت١٠١٤هـ) وكتاب الفقه الأكبر منسوب للإمام أبي حنيفة النعمان - تحقيق على محمد دندل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م - ص١٠١.

(٢) اليواقيت والجواهر: عبد الوهاب الشعراني - ج٢ - دون بيانات - المبحث الحادي والثلاثون في بيان عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من كل حركة أو سكون أو قول أو فعل ينقص مقامهم الأكمل ص٥.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) يانع الأزهار - ص٦٥ .

(٦) اليواقيت والجواهر: ص١١.

نوح عليه السلام:

طلب نوح من ربه تعالى أن ينجي ابنه من الغرق في الطوفان؛ لأن الله عز وجل كان قد وعده بنجاه أهله؛ فجاء الرد الإلهي بأن هذا الابن ليس من أهل نوح؛ لأن أعماله غير صالحة؛ ثم أمر الله عز وجل نوحًا ألا يسأله بغير علم حتى لا يصبح من الجاهلين ﴿**فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين**﴾[١].

ولم يكن طلب نوح الذي جاء في غير موضعه خطأ متعمدًا؛ لأنه ظن أن أهله هم أقاربه الذين يربطه بهم صلة دم، وطبيعي أن ابن نوح من أهله كما هو معروف من ظاهر القرابة[٢]؛ بل إن أبناء الرجل هم في الدرجة الأولى من القرابة، ولكن بعد ما بيَّن الله عز وجل لنوح أن المراد بأهله هم أهل دينه [٣] الذين يتبعون ملته فإنه كف عما كان قد سبق أن طلبه.

إبراهيم عليه السلام:

اتهم سيدنا إبراهيم عليه السلام حين طلب من الله عز وجل أن يريه كيفية إحياء الموتى أنه داخله الشك في إحياء الموتى ﴿**وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾[٤].

والحق أن سيدنا إبراهيم لم يداخله الشك مطلقا في قدرة الله على إحياء الموتى، وقد تحقق لإبراهيم اليقين، ولكن اليقين درجات منها درجة يقين السمع، ثم درجة

---

(١) سورة هود، آية: ٤٠ .

(٢) الفصل - ج٤ - ص١٣ .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم - م١ - ج١ - ص٨٤ .

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦٠ .

يقين البصر الذي هو أعلى من يقين السمع[١]، فطلب إبراهيم أن يطمئن بيقين البصر بعد أن تحقق له يقين السمع.

والذي نؤكد عليه أن اليقين كان قد تحقق لإبراهيم، واليقين لا يداخله أدنى شك ولكن اليقين قد يداخله نقص لنقص أدواته فيقين السماع أقل من يقين الرؤية، فنحن نسمع عن الصين، ولكن إذا ذهبنا لزيارة الصين وتحققنا من رؤية الصين لاشك أن معرفتنا ببلاد الصين ستزداد وإحساسنا ويقيننا بها سيعظم. وربما يكون إبراهيم عليه السلام بعد أن تحقق له اليقين العقلي طلب اليقين القلبي أو الوجداني. فهو طلب يقين ملكة أخرى غير العقل.

وقد يكون أيضا ما يريده سيدنا إبراهيم هو اطمئنان قلبه بهداية قومه بعد أن يشاهدوا البعث عمليا بإحياء الطير، ويحتمل أيضا أنه أراد أن يطمئن قلبه بأنه وصل إلى المرتبة التي يصبح فيها خليل الله؛ حيث كان الله تعالى قد أوحى إليه «إني اتخذت عبدًا من عبادي خليلا وعلامته أنه لو طلب مني إحياء الميت فإني أفعله إكراما له»[٢] فأراد أن يتأكد إبراهيم أنه خليل الرحمن الذي علامته أنه لو طلب من الله إحياء الموتى لأجابه الله تعالى.

وقيل أيضًا إن النمرود كان قد اتهم إبراهيم بالكذب لأنه ذكر له أن الله يحيي ويميت، فهدد النمرود إبراهيم وتحداه بأن يطلب من الله أن يحيي ميتًا وإلا قتله،

---

(١) تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث والجمع بين الأخبار التي ادعا عليها التناقض والاختلاف والجواب عما أورده من الشبه على بعض الأخبار المتشابهة أو المشكلة بادئ الرأي: ابن قتيبة الدينور (ت٢٧٦هـ) - مكتبة المتنبي - القاهرة - بدون تاريخ - ص٦٥.

(٢) عصمة الأنبياء: الرازي - ص٤٤.

فطلب إبراهيم من الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى لسببين: لكي يثبت لهذا الكافر أن الإحياء والإماتة بيد الله تعالى فالله موجود.

- ولكي يطمئن قلبه بأن هذا الكافر لن يقتله ويزول عنه الخوف ويأمن أنه لن يقتل[١].

وبعد هذه الإطلالة التي قدمناها لما قد يتوهم أن الأنبياء كانوا قد وقعوا فيه من زلات نحاول أن نعطي صورة مقارنة لبعض الأنبياء (أيوب - موسى - يوسف) بين كل من القرآن الكريم والتوراة؛ ليتضح لنا بأمثلة عملية طبيعة النبوة بين الأديان الثلاثة.

(١) عصمة الأنبياء - ص٤٥.

obeikandl.com